

دور النجف في تاريخ العراق السياسي الحديث

(من عام ١٩٠٨ إلى عام ١٩٥٦)

الأستاذ طالب علي الشرقي (*)

عرفت النجف بمركزها الديني البارز منذ القرن الخامس الهجري ولم يعرف لها مركز سياسي واضح إلا في القرن الرابع عشر الهجري. وقد حدثت عدة أمور تدخلت فيها النجف تدخلاً مباشراً وغير مباشر على يد علمائها الأعلام، مما جعلها تحتل مركزاً مرموقاً في سماء السياسة المحلية والدولية في بعض الفترات.

وقد أشار الأستاذ علي الخاقاني إلى أبرز تلك الأمور، فذكر قضية تحريم التبناك بمكافحة الامتيازات وشركات الاحتكار الأجنبية في إيران، وكانت النتيجة خسارة الشركة وإلغاء امتيازها. وذكر كذلك أثر فتوى علماء النجف على نفوذ السفارات الأجنبية وذلك بالضرب على أيدي الإيرانيين الذين رفعوا العلم البريطاني في كربلاء طالبين التبعية الإنكليزية. وتحدث عن قيام حركات سياسية مهمة في هذه المدينة عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م تديرها هيئة من العلماء لتأييد الانقلاب في إيران وازدياد نشاط تلك الحركات عند إعلان الدستور العثماني في نفس السنة. وكان من نتائج ذلك إعدام الميرزا فضل الله لموقفه المعاكس لهم، وإقصاء محمد علي شاه وتنصيب ابنه أحمد شاه مكانه. ووصلت بهم الحال إلى إرسال الفتاوى برقياً بتوقيعهم إلى السلطان عبد الحميد، ومحمد علي شاه بوجوب التخلي عن عروشهم.

وأشار كذلك إلى قيام جبهة تضم الهيئة العلمية وفرع حزب الاتحاد والترقي في النجف. ولما تجاوزت روسيا على حدود إيران الشرقية أعلن علماء النجف الجهاد والسفر إلى إيران. فضربت أطناب المجاهدين في خارج السور، وجمعت الأموال والأجهزة الضرورية للسفر. وعند فجر اليوم الذي أزمعوا السفر فيه فوجئوا بموت كبير العلماء، ورأس الحركة الشيخ ملا كاظم (الآخوند) فأرجئ السفر، وقوضت خيام المجاهدين.

وفي عام ١٣٢٩هـ/١٩١١م أفتى علماء النجف بوجوب الدفاع عن ليبيا عندما احتلتها إيطاليا.

(*) كاتب، محقق، شاعر، رئيس اتحاد الأدباء فرع النجف سابقاً.

وتحدث أخيراً عن مواقفهم خلال الحرب الأولى وإصدار الفتاوى بوجوب الدفاع عن حياض الوطن، ومرافقة الجيوش في ساحات القتال، وإدارتها على أحسن وجه^(١).

وعندما هزم الأتراك في بداية الحرب بمعركة الشعبية تلك المعركة التي أسهم بها عدد من النجفيين، استغل النجفيون هذه الفرصة فهاجموا الأتراك وحاصروهم فسلموا بعد ثلاثة أيام. فأخذ الثوار أسلحتهم وسهلوا لهم الانسحاب عن طريق الكفل وقيت النجف من نيسان ١٣٣٤/١٩١٥ هـ حتى آب ١٩١٧ م/١٣٣٦ هـ مستقلة استقلالاً تاماً تحت حكم شيوخ (الزقري والشمر) الأربعة^(٢).

وكسب كثير من الباحثين في الحوادث التي جرت في العراق خلال فترة الاحتلالين، وبالأخص في آخر سني التسلط العثماني وأول سني التسلط الإنكليزي، وانقسموا إلى فريقين - على الأقل - فمنهم من يرى أن النجف تمثل مركز ثقل التحرك السياسي في العراق خلال تلك الفترة، ويرى آخرون غير ذلك. ولأجل إيضاح دور هذه المدينة أقول:

كان العراق في مطلع القرن العشرين بلداً متخلفاً يرزح تحت وطأة التسلط التركي المعروف باللائظام ويعاني من سطوة الولاة والجبابة. ولما تغيرت الوجوه تبين أن الخلف أسوأ من السلف. فتحركت في العروق الدماء الأبية وثارَت النفوس المضامة وكانت بغداد والنجف من أهم مراكز الإشعاع الوطني في القطر.

إلا أن بغداد كانت تضم مجتمعاً خليطاً واسعاً يجمع أجناساً متضادة تغلب على أكثرهم نزعة (الأنبا). فالتاجر بتفكيره التجاري، واليهودي بحمقه وآماله، والعناصر الوصلية التي حصرت تفكيرها في تسلم المناصب وكسب الجاه، أسباب في شل تحرك أحرار بغداد إضافة إلى كونهم إلى يد القمع أقرب لقربهم من مركز السلطة. ومع ذلك فقد كان لأحرار بغداد أعظم الأثر في مجريات الأحداث ونتائجها.

أما النجف فهي كما وصفها الدكتور علي الوردی مؤلفة من صنفين من السكان (المشاهدة والملائية) وأراد بالأولى حملة السلاح وبالثانية المعممين، يضاف إلى ذلك ارتباط هذه البلدة بجمع من القبائل الفراتية ارتباطاً عقائدياً وروحياً.

ولشبابها المثقف وقدرته على توعية الجماهير وإثارة روح الحماس فيها أثر آخر ملحوظ. ولا تخلو هذه البلدة من طلاب الرياسة والمنافع الشخصية. وخدام المستعمر، شأنهم شأن غيرهم في المدن الأخرى. إلا أن الناتج من كل ذلك نسيج سداه الوطنية وحمته الدين.

(١) مقدمة كتاب معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠م لمحمد علي كمال الدين ص ٣-٥.

(٢) عبد الله فياض / الثورة العراقية الكبرى ص ١٥٧، ١٥٨.

نعود الآن إلى أعوام ما قبل الحرب الأولى وما بعدها ودور النجف فيها. إذا تجاوزنا مجريات الأحداث اليومية خلال تلك الفترة لا بد من الإشارة إلى أهمية وجود المرجعية الدينية العليا وتفاعلها مع حاجة الجماهير وتأثيرها الفعال في الأوساط التي تحترم مقامها، وتحركها الفعلي في تلك الفترة معتمدة على نخبة من الشباب الوطني المتحمس مما جعل النجف تعيش حالة غليان على جميع الأصعدة. يدل على ذلك ما ظهر من أنشطة حية في حياتها العامة. فكانت من أوائل المدن العراقية في إصدار الصحف اليومية (عام ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ) وخرائد أبنائها توضح الروح الوثابة للتحرر ومساندة حركات التحرر في العالم، فوقفها مع أحرار إيران^(١) وتركيا، ونشاط حركة المشروطة والمستبدة فيها^(٢)، ووصول الصحف من الخارج إليها، وإعلان الجهاد ضد روسيا لتحرشها بإيران، والوقوف ضد إيطاليا للدفاع عن ليبيا يدل على يقظة أبناء هذه المدينة، ونزوعهم إلى الحرية ومحاربة التسلط. ولعبت دواوينها دوراً فعالاً في توعية الجماهير ودراسة المواقف ووضع الخطط «وبث الدعاوة والتحريض ضد الإدارة البريطانية في العراق»^(٣).

وقال الأستاذ جعفر الخليلي عن دواوين النجف ويسميتها مجالس: «والمجالس كانت عنوان النجف منذ كان تاريخ النجف. وهي تمثل النجف تمثيلاً فيه الكثير من واقع البلد وحقيقته وأهدافه. وفي هذه المجالس كانوا يتبادلون الآراء والأفكار السياسية وفي هذه المجالس كانت توضع الخطط وتعد المناهج العامة ثم هي بعد ذلك أشبه بقاعة المحاضرات والدرس والمباراة الشعرية بل كثيراً ما قامت هذه المجالس بمهمة المحكمة ففصلت بين المتشاكين وتوسطت في حل المشاكل على قدر ما لصاحب المجلس من لياقة وقابلية. والمرتادون لهذه المجالس وإن كانوا من طبقات مختلفة ولكنهم كانوا عيون البلد ووجوههم لا يصلح غيرهم أن يمثل النجف تمثيلاً واقعياً في أفكاره وآرائه وما هي عليه من مواهب أدبية وفنية. وإلى مثل هذه المجالس يعود الفضل في بذرة الاستقلال ووضع أول خطة لكيفية المطالبة باستقلال العراق ومن هذه المجالس انبعثت فكرة ثورة النجف الأولى في وجه الإنكليز»^(٤).

(١) في سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٧م قامت جماعة من علماء طهران بحركة تحريرية تهدف إلى تحقيق العدالة والماواة والحد من سلطة الشاه بإيجاد مجلس يتقيد الحاكم بمقرراته فدعمت النجف هذه الحركة المباركة وساندتها بقيادة الشيخ كاظم الخراساني وما إن تبنت النجف هذه الفكرة حتى انمكت الآية فبعد أن تولدت في طهران أصبحت طهران وغيرها صدى للنجف التي هزت عرش الشاه وأودت به (محمد جواد مغنية/ مع علماء النجف الأشرف ص ١١٣).

(٢) أصبحت النجف في ذلك العهد مركزاً سياسياً مهماً وشجعاً مخيفاً بين عواصم العالم الإسلامية مما دعا أن يستجند بها أحرار تركيا (محمد جواد مغنية/ المصدر نفسه ص ١١٣-١١٤).

(٣) عبد الله قياض / الثورة العراقية ص ٢٢٧.

(٤) جعفر الخليلي / هكذا عرفتهم ١: ٣١٦.

أما مصدر الأخبار والمعلومات التي تستمد منه تلك المجالس ما يهمها فهو بعض الصحف التي تصل إلى النجف من حواضر الشرق الأوسط أما المنبع الأخير الذي تستقي منه هذه المجالس أخبارها وترسل عن طريقه ما يدور فيها من مباحثات عن الأمور السياسية وغيرها فهم الجنازون»^(١).

وكتب حاكم النجف السياسي في سنة ١٩١٨م/١٣٣٧هـ يقول: «وبالرغم من انعزال النجفيين فإنهم يستلمون ويوزعون جميع أخبار العالم التي يسمعونها من سبل الزائرين المتدفقين على بلدتهم المقدس ولذا يستطيعون أن يتمتعوا بتأثير ضار يتعدى حدود بلدتهم وحتى حدود العراق نفسها»^(٢).

يضاف إلى ذلك ما تركه رجال الدين (المشائخ) والمثقفون الذين يخرجون إلى الأرياف من أثر فعال في نفوس أبناء العشائر وحثهم على الوقوف مع الأحرار. وكان ذلك بمثابة القاعدة الصلبة التي استندت إليها المراجع الدينية العليا في إصدار فتاواها التي كان لها أكبر الأثر في إشعال نار الثورة ضد المستعمرين.

ثورة النجف:

بعد أن سلطنا الأضواء على مركز النجف بين مدن العراق ودورها البارز على مختلف المستويات، قبل وبعد حرب الشعبية تلك الحرب التي شاركت فيها النجف للدفاع عن قدسية الوطن ومقدساته، نوجز الحديث عن ثورة النجف عام ١٩١٨م/١٣٣٧هـ.

لقد عاشت هذه البلدة فترة زادت على العامين تحت ظل حكم محلي بإدارة أبنائها «وكانت إدارة حسنة نالت إعجاب الناس سواء في داخل النجف أو خارجها»^(٣).

وبعد سقوط بغداد اتجه الإنكليز إلى تمكين جيوشهم وتسلبهم على جميع المدن والأرياف العراقية. وقد كانت النجف مصدر قلق لهم فأولوها أهمية خاصة منذ زمن بعيد «فوجهوا رسلهم لدراسة أحوالها وكيفية السيطرة عليها فكرباً.

ففي يوم ٧ مارس ١٩١١م/١٣٢٩هـ وصلت المدينة المس جيروتروود بيل.

كما كتب المقيم البريطاني في بغداد عام ١٩١٢م/١٣٣١هـ عن انتعاش الروح الوطنية والقومية في بغداد والنجف.

(١) عبد الله فياض / الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠م ص ٢٢٨.

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٧.

(٣) عبد الشهيد الياسري / البطولة في ثورة العشرين ص ١٠٢. وانظر فريق المزهري / الحقائق الناصعة ١: ٤١.

كما كتب المستر فيليب إيرلاند في كتابه عن العراق: إن مؤتمراً عربياً عقد في المحمرة عام ١٩١٣م/١٣٣٢هـ حضره شيخ المحمرة نفسه ودار البحث عن استقلال العراق ثم أرسلوا الرسل إلى النجف لاستمداد التأييد منها وتهيئة الناس للحركة.

وفي ١٩مايس ١٩١٧م/١٣٣٦هـ زار المدينة السير (رونالد ستورن) وكان يتقن اللغة العربية فاتصل ببعض علمائها ووجوهها وأعضاء مجلس البلدية.. وقابل السيد كاظم اليزدي المرجع الديني الكبير وقدم له ألف باون ليوزعها على الفقراء من طلبة العلوم الدينية فرفضها السيد ولم يتسلمها.

وفي خلال كانون الأول ١٩١٧م/١٣٣٦هـ زار المدينة السير برسي كوكس الحاكم العام في العراق للدراسة أحوالها ليتمكن من تقديم المشورة إلى قائد القوات المحتلة في العراق بخصوص مدينة النجف^(١).

وأخيراً وجد الإنكليز أنفسهم وجهاً لوجه مع هذه المدينة وهم يعلمون أنها لم تعرف الرضوخ للحاكم المتسلط منذ زمن بعيد حتى أن حكم الأتراك فيها كان شكلياً لذا فإن المستعمرين يعرفون مسبقاً أنهم سيواجهون موقفاً حرجاً في تحركهم نحوها حتى أن المس بيل صرحت بهذا بعد فشل ثورة النجف فقالت: «وعلى هذه الشاكلة انتهى ما كان يعتبر أدق موقف لنا منذ احتلال بغداد»^(٢).

وأول تحرك تجاه هذه البلدة كان تحركاً خيئاً حيث مهد الإنكليز لضمها إلى منطقة نفوذ احتلالهم باسترضاء زعماء هذه المنطقة واستمالة شيوخها ونثر المال بين الناس نثراً^(٣).

وعندما فكروا في إيصال قواتهم العسكرية إلى النجف وضعوها في أماكن بعيدة عن البلدة لتحاشي الحساسيات التي يمكن أن تخلقها تلك الأجواء الجديدة أو «تحاشى وضع القوات المسلحة في المدن لثلا يسبب وضعها ردود فعل في الهند وإيران»^(٤).

إلا أن تحرش مجموعة من المسلحين من أتباع الشيخ (عطية أبو كلل) بالقوة الهندية التابعة لجيش الاحتلال والتي كانت تمارس بعض التمرينات في (منخفض بحر النجف) أدى إلى دخول تلك القوة إلى البلدة.

وفي ضحى نفس اليوم ظهرت في سماء النجف طائرة إنكليزية فلم يتردد النجفيون في إصلاؤها ناراً حامية^(٥).

(١) شاعر البرمكي / مجلة دراسات عربية العدد السنة ٤ كانون الثاني ١٩٦٨.

(٢) جعفر خياط / فصول من تاريخ العراق القريب ص ١٢٧.

(٣) عبد الرزاق الحني / ثورة النجف ص ٨.

(٤) نفس المصدر ص ١٦.

(٥) محمد رضا الشبيبي (مذكرات) مجلة الثقافة الجديدة العدد ٤ ص ٢٩١.

ولم يكن في استطاعة الإنكليز أن يهضموا الإهانة التي لحقت بمفرزتهم الخيالة التي خرجت إلى ضواحي النجف صباح يوم ١٢ كانون الثاني ١٩١٨ م / ١٣٢٧ هـ لإجراء بعض التمرينات ولم يكن من المعقول أن يسكتوا على إطلاق الرصاص على طائرتهم التي حلقت في سماء النجف في ضحى اليوم المذكور^(١).

فقرضوا على البلدة غرامة من المال والسلاح كما اتخذوا التدابير اللازمة لمواجهة البلدة بكل قوة وفي أثناء ذلك نشطت جمعية النهضة الإسلامية و(نشرت دعوتها بين القبائل المحيطة بالنجف والكوفة وأبي صخير والشامية وبين حملة السلاح من أهل النجف وأصبح لهذه الجمعية جناحان أحدهما سياسي يخطط للثورة وآخر مسلح. وعمل الجناحان معاً لتوسيع نطاق الثورة حتى تشمل البلد كله. وفي أثناء تحركهم السري وصل إلى علمهم تسرب المعلومات ومقررات الجمعية إلى الإنكليز. وكان الحاج نجم الدلبي (البقال) العضو الحربي العامل في جمعية النهضة الإسلامية قد عرف بذلك فقرر أن يفاجئ أصحابه بوجوب انتهاز فرصة زيارة عيد النوروز لقتل الكابتن مارشال حاكم النجف السياسي فيتخذ هذا القتل ذريعة للقيام بثورة يندلع لبيها عند القبائل الداخلة في الجمعية وغير الداخلة التي سيحملها الكره لحكومة الاحتلال على مجارة الثوار وبذلك تحقق أهداف الجمعية في التحرر من ربة الاستعمار.

وفي ليلة يوم الثلاثاء الموافق ٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٦ هـ / ١٩ آذار ١٩١٨ م اجتمع عدد من أبطال الجمعية وقرروا القيام بعملية قتل الكابتن مارشال، وتم لهم ما أرادوا. وأعقب ذلك قتل شرطين ومحاولة لقتل (بلفور) حاكم الشامية والنجف وجرّد النجفيون أفراد الشرطة من أسلحتهم وهاجموا دار الحكومة القديمة في البلدة بعد فرار حاميتها وحراسها ونهبوا ما فيها من أثاث وقلعوا الأبواب وأشعلوا النار فيها^(٢).

وكان متظراً أن تستجيب القبائل المحيطة بالنجف لدعوة حمل السلاح المتفق عليها وإذا بهذه القبائل تتحجم عن كل حركة في تنفيذ الخطة، وتركت النجف تنوء وحدها بحمل ثقيل. وضع بلفور خطة لضرب الحصار على المدينة وأمر بتجميع الجيوش البريطانية حتى بلغت لواءاً كاملاً فأسندت إلى الجنرال ساندرز قيادته^(٣) وأغلقت السلطة أبواب سور المدينة وضربت عليها حصاراً أليماً مدة خمسة وأربعين يوماً وقطع عنها الماء الصالح للشرب وتركت لهم شرب مياه الآبار غير المستساغة. فاجتمع أعضاء جمعية النهضة الإسلامية وتدارسوا الموضوع من

(١) عبد الرزاق الحني / ثورة النجف ص ٢١.

(٢) عبد الرزاق الحني / ثورة النجف ص ٢٤-٣٤.

(٣) نفس المصدر ص ٣٥.

نواحيه المختلفة فقر القرار على وجوب الصمود والقتال على الرغم من أن بعضهم لم يكن راضياً عن هذه المجازفة من الأساس.

وهكذا انشطروا شطرين يقوم أحدهما بواجب القتال وينصرف الآخر إلى جمع المال وتوفير السلاح والعتاد وما لبثوا أن كرروا الاتصال برؤساء العشائر في الأرياف المجاورة يستحثونهم على مد يد العون والإسهام في هذا الواجب الديني والوطني ولكن كان دون ذلك خراط القتاد فقط اتخذت السلطات العسكرية كل الوسائل الممكنة لمنع كل مساعدة من الثوار^(١).

وطال الحصار على البلدة، وأشرف الأهليون على مجاعة لذا طالبوا السلطة بفك الحصار، والعضو عن الثوار. إلا أن السلطة المحتلة فرضت لفك الحصار شروطاً هي:

١- تسليم القتلة ومن اشترك معهم بالفتنة تسليماً بلا شرط ولا قيد.

٢- غرامة ١٠٠٠ (نقطة) وخمسين ألف (روبية) يجمعها الشيوخ المخلصون من محلات البلدة التي كانت لها يد في (الفتنة).

٣- تسليم مئة شخص من المحلات الثائرة إلى الحكومة البريطانية لسوقهم من النجف بصفة أسرى حرب.

٤- تبقى البلدة تحت الحصار الشديد إلى أن تسلم بهذه الشروط وتنفذها^(٢).

وتم للسلطة المحتلة تنفيذ جميع الشروط. وفي ٣٠ مايس ١٩١٨م/١٣٣٧هـ سيق إلى ساحة الإعدام أحد عشر شخصاً وتم إعدامهم في خان الحاج محسن شلاش في الكوفة^(٣) ونفي ١٢٢ شخصاً من النجف إلى الهند.

وقد أورد السيد الحسني أسماء المدومين والمضيين في كتابه ثورة النجف^(٤). وكانت النتائج الآتية كما يقول الأستاذ شاکر البرمكي: «ردم فوهة البركان وخنقه والقضاء على السنة اللهب المتصاعدة، ولكن جوف البركان بقي يغلي وحرارته امتدت في جوف الأرض إلى مناطق الفرات الأوسط»^(٥).

ثمّة أمر يستحق التعليق هو أن البعض يرى في ثورة النجف حدثاً آتياً خلقت الأغراض الشخصية. والحق أن هذا الحكم غير منصف وإن كان بين صفوف الثوار مجموعة من العناصر

(١) نفس المصدر ص ٣٥-٣٧.

(٢) عبد الرزاق الحسني / ثورة النجف ص ٤٩.

(٣) ذكر لي الأستاذ صالح شمة: إن الإعدام تم في خان ميرزا محمد البهبهاني وليس في خان الحاج محسن شلاش. والمعروف لدى أهل الكوفة أنه تم في خان الكرمانلي على شارع شط الكوفة.

(٤) ص ٧٨-٨٣.

(٥) مجلة دراسات عربية العدد ٣ السنة ٤.

الوصولية والنفعية (والأشقياء) والخارجين على السلطة. فالنجف من البور الحية في الحركة الوطنية العراقية وتاريخها خال خال من فترات الخمول منذ مطلع القرن العشرين. ثم إن العناصر التي ارتقت أعواد المشائق والتي استسلمت لسلاسل الحديد وعاشت النفي والتشريد أغلبها ذات ماض جيد وسمعة طيبة وليس خافياً أن العناصر الخارجة على السلطة تكون السبابة لمقارعة السلطة. وأخيراً فإن هذه الثورة نتاج عوامل كثيرة وطنية ودينية ورد فعل لتصرف الحكام في هذه البلدة.

النجف تواصل المسيرة:

إن فشل ثورة النجف عام ١٩١٨م/١٣٣٧هـ لا يعني مسح فكرة التحرر من أذهان الأحرار، بل تبلورت الفكرة أكثر وكثر أنصارها ومريدها. وبدأ العمل لتهيئة الفرصة المناسبة للانقضاض على المتسلطين. وكان لواء المعارضة والحض على الثورة بيد النجف طيلة الفترة التي سبقت ثورة العشرين وما بعدها.

لقد عارضت هذه المدينة وبشدة الاستثناء الذي أرادته سلطة الاحتلال لاختيار الحاكم في العراق. وكان لعبة مفضوحة أريد منها تكريس الاحتلال وتسلط الإنكليز لحكم العراق حكماً مباشراً.

ونظمت المضابط والرسائل للمطالبة بحقوق الشعب، واستقلال البلد. (وعندما نشرت الصحف البغدادية في ٣ مايس ١٩٢٠م/١٣٣٩هـ بلاغاً رسمياً يشعر بوضع العراق تحت الانتداب البريطاني.. طبعت النجف على عجل عشرات ألوف المناشير في مطابعها الحجرية والحديثة تحض على الثورة ضد الإنكليز وجرى توزيعها في جميع أنحاء العراق)^(١).

ونشط التحرك السياسي ضد الإنكليز، وكان للميرزا محمد رضا نجل الإمام الشيرازي دور بارز في الحركة الوطنية في كربلاء، مما اضطر الإنكليز لإلقاء القبض عليه «فقامت في كربلاء والنجف مظاهرات صاخبة.. وقد استمرت هذه المظاهرات عدة أيام اشتد السخط خلالها على الإنكليز»^(٢).

ولما صدرت فتوى الإمام محمد تقي الشيرازي التي جاء فيها: (المطالبة بالحقوق واجبة على العراقيين ويجب عليهم في ضمن مطالبهم رعاية السلم والأمن ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطالبهم) جندت هذه البلدة طاقاتها وطبعت آلاف النسخ وأودعتها بأيدي الأحرار من أبنائها لنشرها في أنحاء العراق^(٣).

(١) حسن الأسدي / ثورة النجف ص ٣٨١.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٣٨٣.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

وشفعتها بحملة واسعة من الدعاوة ضد الإنكليز وحرضت العشائر على عدم الرضوخ لأوامر المحتلين.

وفي ٣٠ حزيران عام ١٩٢٠م/١٣٣٩هـ اعتقلت القوات الإنكليزية رئيس عشيرة الظوالم الشيخ شعلان أبو الجون الذي اختلف في وصفه المؤرخون فمنهم من استبعد علمه المسبق بالثورة^(١) ومنهم من عده من الأقطاب الذين أقسموا على الاشتراك في الثورة ضد الإنكليز^(٢) فثارت الرميثة بعد إخراج شعلان من المعتقل وكانت عشائر الشامية على اتفاق مع الثوار^(٣) وكان ذلك بمثابة الشرارة الأولى التي انطلقت منها ثورة العراق الكبرى^(٤).

وعند وصول خبر الرميثة إلى النجف قامت بطرد الحامية الإنكليزية وتبعتها إلى الكوفة وحاصرتها هناك وصارت النجف عاصمة الثورة منذ البداية حتى النهاية^(٥).

وتلاحمت قوى الثورة الخيرة في ساحات الشرف. وامتدت حركة التحرير في طول البلاد وعرضها. إلا أن ظروفًا خاصة رافقت الحركة أدت إلى انهيار بعض الجبهات وانسحاب أثر ذلك الانهيار على الجبهات الأخرى، وسلوك الإنكليز مختلف أساليب الغدر والخيانة وشراء الذمم، وبالتالي ألقى السلاح قبل إتمام المهمة والوصول إلى الغرض الذي من أجله روت دماء الشهداء أرض العراق الحبيب.

ولعبت الدبلوماسية دوراً مهماً، وأغدقت الأموال والمناصب على الأصدقاء والمساندين، وألجمت الأفواه، وأخمدت النيران. وأصبح في العراق حكم مغلف بالوطنية والعروية.

وبالرغم من جميع النتائج المعاكسة وجثوم كابوس الاحتلال على صدر المدينة الباسلة، لم تهن ولم تياس وساهمت مساهمة فعلية في تبديل الحكم الإنكليزي المباشر للعراق بحكام عرب. لقد سادت العراق أفكار متضاربة في اختيار شكل الحكم والإدارة في البلد. حتى أن المحتلين أنفسهم اختلفوا في ذلك. فهل يخضع العراق للحكم الإنكليزي المباشر أو يقوم فيه حكم جمهورية أو ملكي أو شكل آخر يمكن أن يكون حلاً وسطاً يرضي الثوار والمحتلين؟ وكان لكل فكرة أنصار ومؤيدون.

(١) فراتي / على هامش الثورة العراقية الكبرى ص ١٦.

(٢) حسن الأسدي / ثورة النجف ص ٣٨٣ وانظر الحسني / الثورة العراقية الكبرى ص ١٠٠. وفريق المزهر / الحقائق الناصحة ١: ١٠٤.

(٣) المس بيل / فصول من تاريخ العراق القريب ط ٢ ص ٤٤٨ ترجمة جعفر خياط.

(٤) محمد علي كمال الدين / معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠م ص ١٢١.

(٥) حسن الأسدي / ثورة النجف ص ٣٨٤.

ومن خلال ذلك الصراع، تمت الموافقة على أن يحكم العراق ملك عربي مسلم، وانتهت الطبلخة باختيار (فصل) لعرش العراق. وكان للنجف -تحت تأثير أجواء خاصة ذكرها الأستاذ حسن الأسدي^(١)- أكبر الأثر في اختيار أحد أنجال الشريف حسين ملكاً على العراق. وكان مندوب الثورة للشريف حسين نجفياً.

ولما وصل فيصل العراق عن طريق البصرة، ووصول ركه إلى اللفة اتجه لزيارة النجف^(٢). ثم إن اختيار فيصل ليوم تتويجه كان بتأثير من النجف -حسب الظاهر-.

ومهما يكن من أمر فيصل، فإن تحرك هذه المدينة بتلك الصورة كان مقبولاً آنذاك من وجهة النظر القومية والدينية. فالملك الجديد عربي ومسلم. إلا أن تعيينه ملكاً على العراق قد تقرر في مؤتمر القاهرة في آذار ١٩٢١م/١٣٤٠هـ الذي عقده المستر تشرشل لحل مشاكل الشرق العربي^(٣) وخلال الحكم الملكي في العراق حدثت عدة مفارقات وحوادث كان الأحرار لها بالمرصاد. وكان لهذه البلدة صوت مسموع في الأوساط السياسية والشعبية في القطر.

(ففي ٤ آب ١٩٢٢م/١٣٤١هـ قامت مظاهرات في النجف ومدن الفرات تطالب بالاستقلال التام. وعقد اجتماع كبير في المشخاب حضره زعماء الفرات الأوسط ورؤساء قبائله وتداولوا في قضية الانتداب والمعاهدة فقرروا إرسال برقيتين واحدة إلى فيصل الأول والثانية إلى المندوب السامي غير أن زعماء الحركة الوطنية قرروا القيام بمظاهرة كبرى في النجف في يوم الغدير فانعقد مجلس كبير في دار العلامة السيد أبي الحسن الأصفهاني في ١٢ آب واستدعي (محافظ) كربلاء عبد العزيز القصاب لحضور الاجتماع.. وفي نهاية الاجتماع تقرر الاكفاء بتأييد ما جاء في البرقيتين اللتين أرسلتا إلى الملك والمندوب السامي في ٤ آب ١٩٢٢م/١٣٤١هـ)^(٤).

(أما بخصوص انتخابات المجلس التأسيسي، ولما لم تستجب الحكومة لشروط زعماء الحركة الوطنية فقد تآزم الوضع عندما أعلن رجال الدين في النجف وكربلاء والكاظميين تضامنهم واتحادهم مع زعماء الحركة الوطنية وقرروا مقاطعة الانتخابات ما لم تستجب مطالب الحركة الوطنية. وأصدرت الهيئة العلمية في النجف فتوى جاء فيها: لا يجوز الانتخاب ومن انتخب خرج من رتبة الإسلام^(٥) وكان تأثير الفتاوى كبيراً على الجماهير فقد توقفت الانتخابات في

(١) ثورة النجف ص ٣٧٧-٣٨٠.

(٢) عبد الشهيد الياسري / البطولة في ثورة العشرين ص ٣٤٩.

(٣) حسن الأسدي / ثورة النجف ص ٣٨٠.

(٤) د. عبد الأمير هادي المكالم / الحركة الوطنية في العراق ١٩٢١-١٩٣٣ ص ٨٠-٨٢.

(٥) قال الأستاذ صالح شمة: كان نص الفتوى هكذا: (من اشترك فيها «يعني الانتخابات» فقد حاد الله ورسوله).

النجف وكربلاء والحلة والكوفة وأعلن الموظفون في الكاظمية عن فشلهم في تأليف اللجان الانتخابية كما انتشرت المقاطعة في الموصل والعمارة والمتفك^(١).

وفي مؤتمر لوزان عام ١٩٢٣م/١٣٤٢هـ طلبت تركيا إلحاق الموصل إلى أراضيها باعتباره خارج النفوذ البريطاني حين إعلان الهدنة عام ١٩١٧م/١٣٣٦هـ واستمرت المشكلة فترة من الزمن وكان للنجف دور في هذه القضية حيث هيأت الرأي العام وأبرقت البرقيات الاحتجاجية إلى مختلف الأوساط والمقامات العليا تطلب حسم القضية وعدم التلاعب بالنار وإلحاق الموصل الحديباء بالعراق حتى قال الشاعر المرحوم الشيخ محمد علي اليعقوبي مخاطباً المجلس التأسيسي:

يا أيها النواب صونوا شعبكم بالاتحاد وبالحجة والبأس
الموصل الحديباء رأس بلادكم والجسم يفنى بعد قطع الرأس^(٢)

وشاركت هذه المدينة أحرار العراق في الوقوف بوجه الأحلاف والمعاهدات الجائرة، فنظمت التظاهرات، وأرسل علماء الدين الفتاوى لتأييد الأحرار، وبرقيات الاحتجاج إلى السلطة الحاكمة، وكان لكل ذلك أثر واضح في حدوث التغييرات وتتابع الوزارات والمجالس النيابية.

لقد وقفت هذه المدينة بوجه معاهدة ١٩٣٠م/١٣٤٩هـ وساندت الحركة التحررية عام ١٩٤١م/١٣٦٠هـ وشاركت في وثبة كانون عام ١٩٤٨م/١٣٦٨هـ وكان لها دور نشط في انتفاضة شهر تشرين الثاني عام ١٩٥٢م/١٣٧٢هـ ونظمت تظاهرات الاحتجاج والاستتكار ضد (حلف بغداد) الاستعماري عام ١٩٥٤م/١٣٧٤هـ وفي عام ١٩٥٦م/١٣٧٦هـ وعلى إثر الاعتداء الثلاثي على الشقيقة مصر العربية كانت مدينة النجف الأشرف السباقة إلى المعركة^(٣).. في الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني انطلقت مظاهرة صاخبة يتقدمها رجال الدين. وفي صباح اليوم الثاني زحفت مظاهرة طلابية من مدرستي الخورنق والسدير جابتهما الشرطة بالرشاشات واستمر إطلاق الرصاص على التلامذة الصبيان عشرين دقيقة سقط على أثره عدد من القتلى والجرحى^(٤).

واستمرت المظاهرات على الخروج إلى شوارع المدينة وساحاتها عدة أيام «ووزع الوطنيون في صباح ١١/٢٨ بيان حجة الإسلام كاشف الغطاء (محمد حسين) يندد فيه بسياسة الحكومة

(١) د. عبد الأمير هادي العكام/ الحركة الوطنية في العراق ص ١١٨-١٢٠.

(٢) عبد الرحيم محمد علي/ البيان المفيد في رسم خط القرآن المجيد ص ٩.

(٣) المقصود بالمعركة هنا المعركة الاحتجاجية ضد حكم نوري السعيد.

(٤) أحرار العراق/ انتفاضة العراق الأخيرة ص ٥٢-٥٣.

أحدث صدى عظيماً بين أبناء المدينة وبين عشائر الفرات الأوسط القريبة منها وعند العصر تجمع الناس في الصحن الشريف حيث تلي عليهم نص البيان ثم انطلقوا في مظاهرة ضخمة جداً اشترك فيها نحو عشرين ألف شخص،^(١).

لقد ناضل أبناء العراق نضالاً بطولياً، وقدموا أجسام التضحيات، إلى أن حان وقت جني الحاصل فكان وفيراً وثميناً حيث حقق الجيش العظيم اليوم العظيم يوم الخلاص من التسلط والتبعية يوم الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨م/١٣٨٧هـ.

لقد خرج الشعب العراقي كله إلى الشوارع والساحات ليبر عن فرحته يوم النصر وكانت النجف كذلك تعيش أعراس النصر بالتظاهرات الضخمة ولعدة أيام. ولا تزال هذه المدينة إلى يومنا هذا قاعدة صلبة من قواعد النضال الثوري في القطر العراقي ورافداً غنياً للحركة الثورية العربية.

